جواد صيداوي

البحث عن بداية

« انسان في حالة احتضار . انه مصاب في صدره ، في مكان ما من صدره . كان الليل ينشق عن جرح نابح عندما خرج من بيته ، قال لنفسه : اضيع بين ادبار الظلمة واقبال الضوء . الانفجارات تتباعد فتراتها ، الجوع يشد قبضة سعاره ، عليه ان يخرج ، سبعة اطفال يتضورون ، يتضورون ، لو كان يؤكل لاطعمهم نفسه .. »

بداية رائعة ، قوية ، لم يذهب الجهد عبثا ، لقد بدأت المعاناة تثمر ، كلما اختمرت الحادثة في نفس الاديب جاء التعبير عنها اكثر نضجا واعمق ايحاء . منذ ايام وانا ابحث ، ابحث داخل نفسي وخارجها ، ابحث في دوي الانفجارات ، في الشوارع المقفرة ، في صور الجثث المذبوحة ذبحا والمقتنصة قنصا ، ابحث في تحركات السياسة واهتمامات القادة ، في قيء المذياع وهذيان التصريحات ، في القلوب المفجوعة والنظرات الخائفة . أغرق رأسي في الجحيم المستعر ، امسك بلسان من ألسنة اللهب المتصاعد ، استدل بواسطته على البؤرة لكي اطفيء الثائرة وارفع عن الادب التهمة حتى وجدتها . « انسان في حالة احتضار . »

« النقطة » المنزلة بعد الجمله الاولى بالغة الاهميه ، بعيدة الدلالة . بعض الكتاب يبالغون في استعمال « النقاط » بمناسبة وبغير مناسبة ، في ذلك اسراف يسيء الى فلسفة هذه « العلامة » من علامات الوقف . غاية « النقطة » هنا محددة بدقة ، انها تدعو القاريء بقوة الى تركيز فكره وعاطفته وخياله جميعا حول صورة انسان مكره على مغادرة الحياة الدنيا خلال فترة قصيرة من الوقت ، دون ان يدرك ذلك الانسان لموته سببا ، فهو ليس طرفا في النزاع القائم ، وهو لا يعرف مقدمة البندقية من مؤخرتها . انسان بائس ، عضه الجوع فاخرجه من بيته ، اراد ان يمسك باللقمة المديرة فامسكت به المنية المقبلة ، فاعيد الى اهله وهو بين الحياة والموت ، اعيد وحده بدون خبز ولا حلم بخبز .

وهذا المصاب ، لم يمت بعد ، وقد ينجو ، انه في حالة بين حالتي اليأس والرجاء ، والقاريء عندما يصطدم بالنقطة سيتوقف حتما ، يحاول ان يغوص في نفس المحتضر : الخطر الناتج عن الاصابة لم يقض على امله بالبقاء حيا ، انه يتنفس ، بصعوبة ، ولكنه يتنفس على كل حال ، وهذا امر هام جدا بالنسبة للحياة والموت ، وهو على قدر كاف من الوعي يساعده على تذكر ما حدث له ، عندما دفعته الحاجة الى مغادرة البيت في صباح هذا اليوم ، فقد طال انقطاعه عن العمل بدافع الخوف من الموت ، يأتيه قنصا ، يأتيه طعنا ، يأتيه طائشا ، والبطون الخاوية تريد شيئا ، اي شيء ، وما اعتاد الفرش ان يمسك بيده ليعرف لونه فيعمل بالقول المأثور الذي يتحدث عن الفرش الابيض واليوم الاسود . في القرية يختزن القروي بعض المؤونة ، اما المدينة فلا تعطي امثاله الا كفاف يومهم ، هذا اذا هي ارادت ان تعطي . اصحاب الكفاية لهم عالمهم الخاص جدا . منهم من يأتيه الرزق ، اذا شمرت الازمة عن ساقها ، في سيارات مصفحة . لذلك يستفيد هؤلاء من انحباسهم في بيوتهم المنيعة ، بمضاجعة بعضهم البعض . بالنسبة له فان اجتماع الخوف والجوع عليه معا ، حرمه حتى من هذه المتعة المجانية ، فقد حاول، مع زوجته ، مرارا ، حاول في الليل وحاول في النهار ، وبكثير من الرغبة والجدية احيانا فلم يجن الا الخيبة .

لا ينبغي الاسترسال حول هذا النوع من الافكار طويلا ، فالموقف لا يحتمل مثل هذه المعاني الجانبية ، لا بالنسبة للمحتضر صاحب العلاقة ، ولا بالنسبة للقاريء المنفعل بقوة .

كما وان « النقطة » او هذه « النقطة » بالذات تتيح للقاريء اللبيب ان نفطن الى بعض الجوانب الخفيه التي يصعب على القاريء العادي أن يلتقطها بسهولة . من ذلك مثلا ، ان الانسان ، وهو في حالة احتضار ، يتكثف في ذهنه المنيفظ ، اكبر قدر ممكن من صور الاحداث الهامة التي عبرت في حياته ، او عبرت حياله فيها ، وهو، اي الانسان المحتضر ، قد تتأنى له الفرصة ، اذا امد الله بعمره قليلا ، ان يقارن ويستنتج ويتحسر ويأمل ، وقد يدرك انه يموت ، اذا قدر الله موته ، مجانا ، لان وجوده ، قبل الاصابة ، كان وجودا مجانيا اي زائفا . وانه كان بامكانه ان يجعل لموته هذا او لغيره ، معنى ، لو انه حاول ، من قبل ، ان يجعل لحياته معنى. وهنا يتعلق المحتضر بأمل النجاة من الموت بقوة ، لا حبا بالبقاء فقط، بل لانه يشعر ايضا بالرغبة الصادقة ، هذه المرة ، على تغيير واقع الحياة ، حياته وحياة امثاله ، بجرأة واندفاع ، والى حد التضحية بالنفس .

وهذا الجانب من تفكير المحتضر ، اذا اتيح للمحتضر حظ من تفكير ، عظيم الشأن جليل الاثر ، وان هو لم يرد في ذهن المحتضر ، او لم يسمح الموت بتحقيقه بالنسبة له ، ففيه عبرة غنية جدا بالنسبة للقاريء ، اذ يثير في نفسه كوامن شديدة الانفجار تدفعه لكي يمسك بالمصير بيديه مزلزلا جبال الكبت والظلم والحرمان ويفرض التغيير فرضا . ويستحسن هنا ، تقيدا بواقعية الادب ، ان

لا يترك حبل القارىء على غاربه فيلجأ الى تحميل المعنى فوق طاقته ، والتحميل فوق الطاقه ، فالتحميل دونها : كلاهما غير محمود ، مع الاشارة الى ان من شاب على شيء غالبا ما يموت عليه .

وقد يراود المحتضر حسرة جامحه على ما فاته من منح الحياه الدنيا ، وعدم اقتناصه تلك المنح اقتناصا او قنصا ، وبايه وسيله من الوسائل التي يوسلها الاخرون من الذين يعملون لدنياهم كانهم عائشون ابدا . حتى ولو كان في اعتماد تلك الوسائل ارتكاب الكبائر المعروفه وابتكار كبائر غير معروفة .

الا ان هذه الفكره ، في حال ورودها ، قد تفسد التاثير الذي تطمح اليه القصه ، فينبغي معالجه البدايه على نحو يصرف ذهن القارىء عن مثل هذه الاستنتاجات السيئة التاثير . والنقاد ، معظم النقاد ، مرهفو الحساسيه تجاه ما يمكن أن يتركه الأثر الادبي في نفس القارىء من تأثيرات سلبيه أو ايجابيه . وهم ، بتركيزهم الثقيل على هذا الامر ، يعملون ، عن قصد او عن غير قصد ، الى افساد ذائقه القارىء من جهة ، وخنق حوافز الابداع عند الاديب من جهة ثانية .

ولكن فضل معظم المعطيات الواردة آنفا كافيه الدلالة على أن البدايه على قدر من النجاح ذي أهميه . فهي ، اي البدايه ، تكشف في دقائق قليله جدا ، عوالم شتى ، وفي نجاح البدايه نجاح القصه.

« انسان في حاله احتضار . انه مصاب في صدره ، في مكان .. »

« انسان في حالة .. »

ولكنه انسان مفرد ، رقم من الارقام ، والانسان المفرد كاللفظه المفرده ، يفقد قيمته الانسانيه اذا لم يدخل في تركيب . لم ان كل انسان محتوم عليه ان يمر في حاله احتضار ، على اعتبار ان « كل من عليها فان » فما هو المثير في هذه البداية ؟

ولكنه رجل يحتضر لسبب غير عادي ، في ظرف غير عادي ، في بلد غير عادي ، اصيب برصاصة طائشة ، او برصاصة محكمة تم الحقت بها صفة الطيش ، وما قيمة ذلك كله ؟

اصيب مواجهة .. اصيب قنصا ..

وان . .

اسباب عادية الى حد الابتذال ،اذا كان للابتذال حد ما ، عشرات من الناس ذبحوا مواجهة ، باعصاب هادئة ، دون ان يرف للذابح جفن أو ترتجف يد . والقنص سلوى يمارسه البعض بنشوة جامحة كما يمارس الجنس . قنص الطيور اصبح سلوى مملة ، قنص الحسان ، بالمعنى الفاسق ، لم يعد مثيرا بعد ان اصبح الرزق متاحا وسهل التناول . اما قنص البشر . ففيه من الوان الاثارة ما لا يمكن حصره او وصفه ، سيما وان انسان هذا القرن المدبر ، بات، مللا من مظاهر المدنية المسرفة في ماديتها ، توافا للعودة الى بدائيته واننا نرى ذلك واضحا في الرقصات الحديثة وفي بعض انواع اللباس ، وفي السلوك الاجتماعي وفي العلاقات الجنسية .

ثم ان الناس اصبحوا بعدد ذرات التراب،فضاقتالاوطان بينيها ، والسلطه حفاظا منها على حرية الافراد وحرية الجماعات ، تتحاشى التدخل ، بشكل او باخر ، في امور يقبل عليها المواطنون من تلقاء انفسهم

فانتفت المسؤولية القانونية .

والناس عاجزون عن حماية بعضهم البعض ، او مساعدة بعضهم البعض ، فلكل واحد منهم شغل في مصلحته او في رزقه او في جسده او في اهله .

فانتفت بذلك المسؤولية الانسانية .

الهزال باد بوضوح على هذه البداية ، وهزال البداية يؤدي حتما الى هزال المتن وضموره ، والنقد قاس لا يرحم ، والقراء ، غفر الله لهم ، يسرعون الى الملل ، او يسرع الملل اليهم ، ولو انهم يدركون مقدار العناء الذي يقاسيه الكاتب في مواسم الابداع ، لغفروا له بعض التقصير ، خاصة اذا كان هذا الكاتب يحمل على عينيه نظارتين تؤخران عماه الاتي لفترة من الزمن .

حادثة فردية ، عادية ، والافكار التي يوحيها الفرد ، حتى وان لم يكن نكرة او رقما كصاحبنا ، تظل ضيقة المجال محدودة التاثير . والتنبه الى عوامل الضعف في اول دروب الابداع والخلق امر هام ، والا جاء الجهد المبذول شبيها ، والعياذ بالاصالة ، بجهد سيزيف الابدي البؤس .

لا بد ، بعد هذا العناء ، من فترة راحة قصيرة . ارهاق الذهن بشكل متواصل يلجم توثبه . تدخين سيكارة . تجديد النشاط بكاس ما ينغص ولا يسكر . بعض المغازلة الرزينة اذاكانت الزوجة متوفرة . لا ينبغي ان ينسينا الابداع بعض الواجبات الاساسية . الخروج الى الشرفة مع شيء من الحذر ، فالرصاص اعمى. التجول قليلا في الشارع المقفر ، دون الابتعاد عن البيت ، للدخول الى صميم المعركه ، على الادب ان يكون مغامرا ، نابضا بالحياة ، ثم العودة ..

حصر الذهن من جديد ، تخيل الاحداث ، في الاحياء الملتهبة ، تخيلا خلاقا ، انتقاء الالفاظ ذات الوقع الجارح ، الارتفاع الى مستوى المسؤولية عاليا ، ثم الانطلاق من قيود الزمانوالمكان الى اجواء لا نهائية الرحابة ، لكز الخيال ، تقطيب الحاجبين ، مداعبة القلم برقة التملق ثم البدء :

« وطن في حالة احتضار . يطل الله من عليائه بعين شامتة ويردد لنفسه وهو يبتسم ابتسامة ماكرة ، « وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » .

« الشوارع مغلقة بابواب ، هائلة الضخامة ، من الخوف »

من حادثة فردية ، عادية الى درجة التفاهة ، محدودة الى حد الاختناق ، الى حادثة جماعية رحبة المجال تشمل وطنا باسره ، باعتبار ان الازمة عامه لم ينج من تاثيرها السيء الا قسم ضئيل من مجموع المواطنين ، والقلة لا اهمية لها امام الكثرة الساحقة كما تزعم الديموقراطية .

والاوطان تحتضر عادة عندما تتوقف فيها حركة الحياة لسبب من الاسباب : هجوم شامل كاسح من الخارج ، زلازل مدمرة ، رياح سموم تعصف بالعقول والنفوس جميعا ، اسلحة شريرة متطورة بين ايدي الجبناء ..

القارىء ، مع هذه البداية الآسرة امام اجواء متنوعة ، غنية، موحية .

فالوطن المحتضر ، كالانسان المحتضر ، له ذكرياته وهمومه وآماله، فهو ، أي الوطن ، قد يتألم ، وهو يلفظ انفاسه ، على تنكره للمباديء الاساسية التي تقوم عليها الاوطان وتسير بهديها ، فزمام امره بيده منذ فترة طويلة من الزمن . لذلك يستعيد بسرعة صور بعض الفترات الهامة من تاريخه القديم والحديث فيتبين الخطا ويتبين الصواب ، وبأمل ، ان هو اجتاز المحنة العاصفة به ، بسلام ، ان يعيد النظر ، صادقا هذه المرة ، في طبيعة تركيبه ، وفي سلامة خلاياه الاجتماعية ، فينبذ الفاسد المتعفن منها ، ويخصي بؤر الفتن في الجماعات التي تتعايش فوق ارضه ، ثم يعيد صهر الجميع بنار الوطنية الحازمة الصادقة العادلة ، ويقوم بتربية الاجيال الجديدة بروح انسانية منفتحة ، وعلى شيء من الالحاد ، لان تعدد الاديان يؤدي ، في غفلة من الايمان ، الى التنابذ والتنافر بين الناس للاستئثار بالاخرة بدءا من الاستئثار بالدنيا . وقد تثير صورة الوطن ، وهو في حالة احتضار ، في نفس القارىء اذا كان القارىء مواطنا واعيا ، او قابلا للتوعية ، كثيرا من الانفعالات العميقة المؤثرة ، وتاتي الانفعالات ، من حيث القوة او الضعف ، بحسب مكانة المواطن ، ونوع عمله ، ومركزه السياسي او الاجتماعي او الديني وبحسب طموحه او خموله ، فقره او غناه . فالانفعالات

العامل غير انفعالات رب العمل ، والمتزوج غير العازب ، والمتخم غير المحروم ، وعلى ذكر المحروم سيفطن القارىء ، ولا شك ، الى ان الحرمان وبنيه قد اصبحوا نوعا من النقد الذي يكثر تداوله في ايامنا ، وثمة من يؤكد ان في تحرك المحرومين سببا من الاسباب المساعدة على احتضار الاوطان ، لان الخطر المدمر للمجتمعات يصعد غالبا من اسفل الى اعلى ، لذلك ينبغي فمع هذا التحرك في اوله : بالقنص على نطاق واسع ، بالقصف المدفعي ، بالذبح ، بأية وسيلة تساعد على الحفاظ على التوازن القائم ، فمن خلق ليعيش في اسفل السلم الوطني عليه الا يحلم بالتسلق.هناك حدود واضحة وقيم متوارثة ، وهناك عهود ومواثيق منها المدون ومنها المتعارف عليه ، وهناك اخيرا طبقات اجتماعية متمايزة خلقت ، بأمر من ربك طبقات متمايزة .

هذه الخواطر ، بعضها او جميعها ، تستوقف القارىء لدى بدئه القراءة ، تمسك به ، تهز وجدانه بعنف ، فيدرك طائعا او مرغما ، بانه امام حدث جلل وخطر داهم واشياء اخرى ، وان عليه ، اي القارىء ، ان يتحرك على نحو ما . هذه البداية المزلزلة ستوقظ ضميره الخدر ، لذلك سيبدو بعد الانتهاء من القصة ، واستيعاب عبرها ومضامينها ، الظاهرة والمستترة ، مهموما ، شارد النظرة ، يدخن باستمرار ، ثم يبحث له ، بكثير من الجدية ، عن دور . في التفرج جبانة وفي العزلة خيانة . الوطن في حالة احتضار ، انه بحاجة الى بذل الجهود الصادقة المؤمنة ، واذا مات الوطن ، لا سمح الله ، فما الذي سيبقى له ؟

اذا كان عاملا فقد المصنع ، واذا كان موظفا فقد الراتب وتوابعه، واذا كان تاجرا فقد ، والعياذ بالاحتكار ، كل شيء ، واذا كان زعيما او مستزعما فقد الانصار ، واذا كان رجل دين لن يلفى من يصلي بهم او يعظهم ، واذا كان كاتبا لن يجد من يقرأ له .

فلا بد اذن من البحث عن دور له ، اي دور ، والادوار في مثل هذه الحالات لا تعد ، منها على سبيل المثال : الاعتصام والصوم حتى الموت ، نثر الزهور على مدافن الشهداء وفي الشوارع التي يمكن ان يسقط على ارضها شهداء . حضور الاجتماعات التي تحكي عن المحبة والالفة بين افراد الاسرة الواحدة ، التجول على المتاريس مع ممثلين عن مختلف المذاهب الدينية لتوعية الاخوة الاعداء ، العمل بجهد دؤوب على مصالحة الذئب والراعي . .

« وطن في حالة احتضار . يطل الله .. وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون . »

الخواطر العميقة التي اثارها العبارة الاولى المنتهية بالنقطة، ستنضح بشكل اكثر سطوعا في العبارة الثانية . اناس اغبياء ، او اذكياء الى درجة خطيرة ، يظلمون انفسهم بانفسهم ، ويملء ارادتهم، يهدمون الهيكل المتداعي عليهم وعلى الاخرين ، بسخرية جارحة ، وبقدر ما تكون السخرية في الادب موجعة ، بقدر ما يكون اثرها في النفس عميقا . واذا كان السلاح الرهيب يتدفق من الخارج وعليه بصمات مرسليه الشريرة ، فان هذا السلاح يستعمله المواطنون لا دفاعا عن وطنهم الوطيئة جدرانه ، وانما في معارك نتنة في دناءتها وهمجيتها .

ثم ان ايراد هذه الاية الشريفة في سياق الجملة ينبيء هؤلاء الاغنياء جدا والاذكياء جدا ان السماء على حياد تام بالنسبة لما يقبلون عليه . واذا كان الناس راغبين في الشر ساعين في اثره فان اي تدخل ومن اي مصدر جاء يعتبر تطفلا صريحا ، وما كان الله ، جل شانه ، متطفلا . وعندما يعي المواطنون هذه الحقائق او بعضها فقد يثوبون الى الرشد او الى بعض الرشد فترد البنادق الى صناديقها والمدافع الى عنابرها والصواريخ الى جحورها، وهكذا تنطفيء النائرة ويجتمع شمل الامة .

لا موجب الى تكرار الحديث عن الفرق الكبير بين بداية تنطلق من المجموع واخرى تنطلق من النكرة . اذا بدأ العمل الادبي متينا انهى متينا وبذلك يمد الكاتب قدمه نحو عتبة الخلود .

« وطن في حالة احتضار . يطل الله .. »

وطن ؟

الحروف تفقد حرارة التجاذب .

اي وطن تريد ؟

ومن انت حتى تريد ؟

وطن في حالة احتضار ؟

اذا قيل عن معافى ، كائنا ما كان ، انه لسبب ما ، في حالة احتضار ، فقد يكون لقولك ، في نفس السامع او القارىء، اذا وجدتهما ، رد فعل معين : الم ، حزن ، شمانة ، تحبب ، اتعاظ، اندفاع للمساعدة .. أما اذا كان المتكلم عنه لم يعرف طعم العافية منذ ولادته فاية قيمة ، واي تاثير للحديث عن موته او عن نعرضه للموت ؟

وهذه ايضا ليست بالبداية الناجعة ، فليس في الامر احتضار ، ولن يكون فيه موت ، ان ما يحدث حولك وفي داخلك ، ما هو في الواقع المرئي وغير المرئي ، الا فصل من فصول اللعبة الكيانية المستمرة ، على هذا النحو ، الى ما لا نهاية .

اما اذا كان ثمة نهاية ما لكل ذلك ، فما هي البداية ؟ ما هي البداية ؟

بيروت

دار الطليعة تقدم

الثورة وتحرر المرأة

تاليف شيلا روبنهام ترجمة جورج طرابيشي

هذا الكتاب لا يضع نظرية جديدة في التسوية، ولكنه يشتمل على عرض ومناقشة لمروحة واسعة من نظريات تحرير المرأة . وهذا الكتاب ليس تاريخيا ، ولكنه يعيد الى الاذهان كل ما هو هام وحي في تاريخ نضال المرأة في سبيل التحرر .

منطلقه فكرة في غاية البساطة والعمق معا : ان قضية المرأة جزء اساسي من قضية الثورة . ولكنه جزء متمايز ومستقل ذاتيا . ومن هنا فان الثورة الاجتماعية ـ التي هي من صنع الرجال ـ لا تنطوي على حل عفوي وتلقائي لمشكلة المرأة ، وانما قيام ثورة في الثورة هو بداية هذا الحل .

فاين تلتقي قضية الثورة وقضية المرأة واين تتمايزان ؟ ذلك هو السؤال المركزي في هذا الكتاب الذي يستعرض ، بالنظريات والوقائع معا ، تاريخ الحركة النسوية منذ ان رأت النور مع تباشير المجتمع الراسمالي ، ومرورا بالثورة الفرنسية ، والاشتراكية الطوباوية ، والاشتراكية العلمية ، ثم الثورتين الروسية والصينية ، ووصولا الى ثورة العالم الثالث حيث تمثل المرأة مستعمرة داخل مستعمرة ، وذلك من خلال ثلاثة نماذج عينية : كوبا وفيتنام والجزائر .